

الرؤية الشمولية في تأريخ الأدب عند شوقي ضيف

د. حلمى بدير

«شوقي ضيف» من القلائل في عمر أدبنا العربي، الذين يعرفون جيداً ما يريدون تقديمه للمكتبة العربية، منذ بداية خوض هذا المجال سنة ١٩٣٩ في رسالته التي تقدم بها إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة وعنوانها، «النقد الأدبي في كتاب الأغاني» لنيل درجة الماجستير في الآداب، ورسالته «الصناعة الفنية وتطورها في الشعر العربي» سنة ١٩٤٢، لنيل درجة الدكتوراه في الآداب.

ووضوح «الرؤية» يبدو محددًا لمنهجه العلمي، منذ هذه البداية الأكاديمية الأولى، كواحد من جيل رائد أول تتلمذ على عميد الأدب العربي مباشرة في شبابه، (كان عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في أوج قمته الأدبية، والإبداعية خلال الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن).

وهو المنهج الذي يعتمد على محورين أساسيين:

* محور تاريخي علمي متتبع، يدقق في مسار تاريخ الأدب العربي، ويلقى الأضواء على جوانب حركته المتطورة المتتابعة.

* محور نقدي أكاديمي يمتزج بالمحور السابق، ليقدم ملامح واضحة لحركة تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة بدءًا من «الجاهلية» حتى «المعاصرة».

وهو «المنهج العلمي» المؤكد على ضرورة خوض جوانب المعرفة الأدبية المختلفة..

فيقدم في تاريخ الأدب العربي:

العصر الجاهلي، ١٩٦٠.

والعصر الإسلامي، ١٩٦٣.

والعصر العباسي الأول، ١٩٦٦.
والعصر العباسي الثاني، ١٩٧٣.
وعصر الدول والإمارات ج١، ١٩٨٠.
وعصر الدول والإمارات ج٢، ١٩٨٤.

وفي مجال الدراسات الأدبية:

الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ١٩٤٣.
والفن ومذاهبه في النثر العربي، ١٩٤٦.
والتطور والتجديد في الشعر الأموي
والشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية.

ثم ينتقل إلى العصر الحديث:

دراسات في الشعر العربي المعاصر، ١٩٥٣.
والأدب العربي المعاصر في مصر، ١٩٥٧.

ثم يقدم دراسة بين الأدبين الرسمي والشعبي:
الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور
والبطولة في الشعر العربي.

ثم يترجم لعدد من الشخصيات الأدبية:

شوقي شاعر العصر الحد.
ابن زيدون.

البارودي رائد الشعر الحديث، ١٩٦٤.
العقاد.

ثم يقدم تجارب في النقد الأدبي التعريف ببعض فنون الأدب العربي في دراساته:

في النقد الأدبي ١٩٦٢، وفصول في الشعر ونقده، ١٩٧١، والنقد ١٩٥٤، والرثاء والمقامة
١٩٥٤، والترجمة الشخصية ١٩٥٦، والرحلات ١٩٥٦، وينتقل إلى الدراسات البلاغية
والنحوية:

البلاغة تطور وتاريخ ١٩٦٥ المدارس النحوية.

ثم إلى الدراسات القرآنية:

سورة الرحمن وسور قصار: عرض ودراسة.

ثم إلى تحقيق التراث :
المغرب في حلى المغرب لابن سعيد جزءان.
كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد^(١).

وهذا التنوع الكبير في مجالات الدراسة في الشعر والنثر القديم والحديث، وفي النحو والبلاغة والنقد والتراجم، وفنون الأدب، والتفسير والقراءات.. يجعل دراسة «البحث الأدبي: طبيعته. مناهجه. أصوله. مصادره» مرجعاً رئيسياً يجمع بين النظرية والتطبيق..

وتبدو في أعماله جميعاً امتزاج المحور التاريخي بالمحور النقدي.. على الرغم من ظاهرة التاريخية الواضحة، والتي تبدو خاصة في بعض عناوينه الرئيسية، مثل «تاريخ الأدب العربي»، أو «البلاغة تطور وتاريخ».

على أن الوقوف عند جانب واحد فحسب عنده، وهو الجانب الغالب على طبيعته الأكاديمية، وهو محاولته الموسوعية في تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة، يجعلنا نحاول كذلك اكتشاف: مدلول «التاريخية» عنده في تاريخ الأدب History of literature... وموقعه بين محاولات تاريخ الأدب العربي فيما سبق تحت أسماء: «تاريخ آداب اللغة العربية» أو نحوها في العصر الحديث بدءاً من جورجى زيدان.

أما عن مدلول «التاريخية» Historianism فهو لا يتغلق على حدود التسابع الوصفى للأحداث في تعاقبها المتسلسل، وإنما ينطلق إلى آفاق التفسير المستفيد من حركة تاريخ الأدب، من حيث علاقتها بالبيئة المفترزة، والأديب المبدع.. ولهذا نجده يستعين بحركة العصر، يتوقف عند ملامحها المحددة لأدوار فكرها.. وهى ملامح قد تبدأ من المكان.. وتمتد في الزمان تكشف عن هوية كل منها.. وتتعرف على الملامح المميزة التي يختص بها عصر دون آخر، ومن ثم يتميز بها فكره وأدبه.. وهو ما سنحاول العرض له بعد.

أما عن موضع «شوقى ضيف» بين محاولات «تاريخ الأدب العربي» قديماً وحديثاً.. فيجب أن يكون واضحاً في الأذهان أنه جهد يختص بالعصر الحديث فحسب.. وأن المحاولات القديمة تقدم نماذج تختلف على نمط «المقتطفات»، «والبقات»، «والمجاميع»، ونحو ذلك، ومع ذلك فإن جهد العصر الحديث يتفاوت منظوراً و «علمية» فيبدو فيه شوقى ضيف متميزاً بينه جميعاً.. فقد توفر بعض على تاريخ الأدب العربي بدءاً من القرن العشرين.. نذكر منهم:

(١) حاولنا رصد تاريخ الطبعة الأولى من دراساته وأبحاثه وهى قد صدرت - في غالبيتها - عن مؤسسة دار المعارف.

تاريخ آداب اللغة العربية: حسين توفيق العدل ١٩٠٤ نسخة بالبولطة بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٧٥.

تاريخ آداب اللغة العربية: محمد دياب ١٣١٧ هـ مطبعة جريدة الإسلام.

تاريخ آداب اللغة العربية: جورجى زيدان ١٩١١.

تاريخ آداب اللغة العربية: مصطفى صادق الرافعى ١٩١١، ٣ أجزاء. مطبعة الأخبار.

تاريخ الأدب العربى: أحمد حسن الزيات.

تاريخ الآداب العربية: كارلو نيللينو.

الأدب العربى وتاريخه: محمود مصطفى ١٩٣٧، ٣ أجزاء.

وفى عدا ذلك فقد جنح الاتجاه فى التأريخ نحو «الجزئيات» التى تقف عند بعض الظواهر: «التشاؤم فى الشعر العربى قبل أبى العلاء»^(١) أو «المرثية فى الشعر العربى»^(٢)، أو «تطور الحمريات»، أو «شعر الطبيعة»، أو «الوصف»، أو «نزعة الزهد» أو غير ذلك، أو تقف عند مرحلة تاريخية كبحث الدكتور محمد كامل حسين، «الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين»، وهو بحثه للماجستير سنة ١٩٣٥ - أو بحث «الأدب العربى فى القرن الثالث الهجرى» لراجية فهمى ١٩٤٢، أو «الأدب البويهى» لمحمد غناوى الزهيرى ١٩٤٨، أو «الشعر العربى فى المهجر» للدكتور يوسف خليف ١٩٥٦^(٣)، ويقف الاتجاه التاريخى أحيانا عند الشخصيات.. وقد بدأ هذا بطله حسين فى رسالته للجامعة الأهلية (١٩٠٨ - ١٩٢٥) لدرجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ بعنوان «تاريخ أبى العلاء المعرى». وتبعه أحمد بيللى برسالة حول «حياة صلاح الدين الأيوبى» سنة ١٩٢٠، ثم محمد كمال حلمى برسالة حول «أبى الطيب المتنبى» سنة ١٩٢٠، ثم «عمرو بن العاص» لحسن إبراهيم حسن سنة ١٩٢١، ولازالت هذه الاتجاهات جميعا تسود تاريخ الأدب العربى فى الرسائل والأبحاث الأكاديمية المختلفة، وقد غطت ولا شك مساحات هائلة من المراحل التاريخية، والظواهر الأدبية والشخصيات الأعلام المختلفة، ولكنها تفتقر - نتيجة لتنوع الباحثين - إلى تكاملية المنهج وشمولية الرؤية.

تكاملية المنهج الأكاديمى:

لا بد من الاعتراف بأن منهج البحث الأكاديمى يبدو مختلفا حتى الآن ومتنوعا، بل وغير واضح المعالم أحيانا لا فى أذهان الطلاب فحسب، ولكن فى أذهان بعض المتخصصين.. ولكن مع

(١) هو بحث الماجستير للدكتورة عائشة عبد الرحمن سنة ١٩٤١.

(٢) بحث الماجستير للدكتور محمد حسن الزيات ١٩٤٢.

(٣) اعتمدنا على ثبت رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة منذ النشأة حتى سنة ١٩٥٧.

دراسات الدكتور شوقي ضيف نكتشف وضوحًا متكاملًا في رؤية المنهج الأكاديمي العلمي، نكتشف معه أن البحث يعد:

- وقد تحددت أهدافه والغرض منه وما يريد أن يحققه.
 - وقد توفرت المادة العلمية في مصادرها ومظاهرها جميعًا متقضية إلى أدق الحدود والأبعاد.
 - وقد توفرت بعد العنصرين الأولين «عناصر الجدة» وهى العنصر الرئيسى من البحث.
- وهنا نطرح التساؤل الموقر حول وظيفة تاريخ الأدب، وقد كان محور أحد أعداد مجلة «الثقافة الأجنبية» العراقية.. الذى جعل «طرق ونظريات كتابة تاريخ الأدب» محور العدد الأول من السنة الثالثة شتاء ١٩٨٣، وكان أول موضوعات هذا «المحور» بعنوان «وظيفة تاريخ الأدب» لروبرت سبيلر Robert E. Spiller ترجمة: د. سلمان الواسطى عن الإنكليزية، تحت شعار من أقوال سبيلر يقول: «وظيفة تاريخ الأدب هى أن يكشف تاريخ الإنسان كما يكشف عنه الأدب».

إن وضوح وظيفة تاريخ الأدب، هى المحور الأول الذى منه تتوضح أبعاد المنهج الأكاديمي المستخدم.. وقد نجح «سبيلر» فى تلخيص أهم النظريات المكونة له.. من التاريخ، والنقد، والظروف المؤثرة.. والمتأثرة.. مع اعترافه بضرورة اقتران هذه العوامل جميعًا.

ففى الماهية يقول «يعنى تاريخ الأدب بأحد أشكال التعبير الإنسانى، فيصف ويفسر «التعبير» الذى يتخذ «الأدب» وسطاً له، الذى يبدعه شعب من الشعوب خلال فترة زمنية محددة، وفى مكان معين وبلغة هى - عادة - لغة ذلك الشعب»^(١).

ونجد التعريف وقد احتوى على كلمات «الوصف» و «التفسير» و «التعبير» و «الأدب» و «الإبداع» و «الزمن» و «المكان» و «اللغة».. وهذه المفردات تشكل تداعياً فكرياً يمكن أن يحدد من خلاله عوامل الالتزام فى عملية تاريخ الأدب». ثم يبدأ بعدها فى فصل هذا المجال عن مجالات أخرى..

«إن تاريخ الأدب ليس تاريخاً للغة» رغم ضرورة استعانتها بعالم اللغة.

«وهو ليس تحقيقاً للنصوص» لأنه يعتمد عليها.

(١) مجلة الثقافة الأجنبية Foreign Culture مجلة فصلية - وزارة الثقافة والإعلام - دار الجاحظ - بغداد. العدد الأول. السنة الثالثة. شتاء ١٩٨٣. ص ٤٠.

«وليس تاريخ الأدب نقدًا أدبيًا»^(١) مع أنه ينبغي أن يعتمد على النقد الأدبي.

ويلخص الموقف على هذا النحو:

«قد يكون مؤرخ الأدب ملأ.. بل يتحتم عليه أن يكون ملأ، بدرجة أو أخرى بميادين عمل اللساني، وناقد النصوص، والناقد الأدبي، لكن دوره كمؤرخ أدبي يختلف تمامًا عن أدوار أولئك، إذ أن وظيفته الدقيقة المحددة هي أن يجيب عن أسئلة مثل: كيف؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ ظهر أو يظهر عمل أدبي إلى الوجود، وما هي علاقاته الحالية أو الماضية بالأعمال الأدبية الأخرى، وبالتاريخ العام للإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًا حساسًا»^(٢).

ومن هنا يصبح دور مؤرخ الأدب محدد الأبعاد في «علمية» منهجه، وتصبح مهمته أكثر شمولية، وأكثر امتدادًا من فروع «التعبير» الأخرى المختلفة، فهو ليؤرخ لفترة ما.. عليه أولاً أن يحدد: الإطار الزمني الذي ينطلق منه والذي ينتهي عنده.. ويقدم مبرره المستند عليه في اختياره للحدود في البدء والانتهاء، وهو قد يكون مبررًا تاريخيًا سياسيًا - كما هو الشائع في تحديد الأطر الزمنية لتاريخ الأدب العربي في مراحلها المختلفة - أو نقدياً فنيًا يعتمد على أحداث التاريخ الأدبي كفواصل زمنية دون غيرها.. ولكنه لا بد وأن يكون مقتنعًا، وهو لن يكون كذلك إلا إذا، توافرت له عناصر المنطقية العلمية.

ثم ينتقل إلى تحديد: الإطار المكاني ومنه تتبين توجهاته وظواهر الحركات التي يرصدها.. والإطار المكاني سوف تتحدد به أيضًا عناصر عدة منها ما هو تاريخي من حيث تاريخ المكان وحركته، صعودًا أو هبوطًا أو ما اختار له توينبي Toynbé، عنوانه الدال الذي لا تسهل ترجمته Cities on the move، وجعله عنوانًا لأحد أهم دراساته في حركة المدن العالمية الكبرى دلهي والقاهرة وغيرها.. يتبعها كحيز مكاني يتمتع بالحيوية والحركة يتمدد وينكمش، ليتغير بتغير العصور والأجيال والحقب التاريخية.

ومن هذا ينتقل إلى: الظواهر الأدبية: وهي معتمدة على تفهم واع بحركة المجتمع بأبعادها المختلفة الاجتماعية، وسياسية، وتاريخية، وفكرية، وثقافية، راصدًا دقائق هذه الحركة، واعيًا بقيمة تأثيرها بمجتمعة في حركة الإبداع البشري، وانعكاسها عليه. واشتراكها في صنع «الظاهرة الأدبية» أو الاتجاه المذهبي أو حركات التقدم أو الارتداد.. أو غير ذلك مما يتعرض له «العصر الأدبي» في كل الأمم والشعوب المختلفة.

ثم يضمن ذلك حركة «الشخصية الأدبية» في الشعر أو النثر، وفنونه المختلفة معتمدًا على

(١) المصدر السابق: ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٠.

«الثابت» دون «المتغير»، وهو لا يرصد «المتغير» حتى يصبح «ثابتاً» وربما تبدو هذه إشكالية «المعاصرة» في ميدان تاريخ الأدب.. ولا يتناقض هذا مع فكرة «سبلر» من «أن اهتمام مؤرخ الأدب، ينبغي أن ينصب على العملية الإبداعية برمتها، وليس فقط على الشكل والمضمون السكونيين للعمل المنجز»^(١).

على أن الأمر من خلال هذه العناصر المتكاملة في تعقب حركة الأدب لا يخلو من «ذوق خاص» وهو قدر من «الذاتية» مفروض حيث أن «المؤرخ الأدبي» لا يمكنه التجرد عن عوامل مكونات ذاته.. وإلى حد ما فإننا نضع في الاعتبار هذه الخصوصية الذاتية في تعقبه لحركة الأدب وإلحاحه على بعض جوانبها وأفكارها، ومحاولاته إخفاء بعض جوانب لا تلقى لديه تقبلاً من نوع ما.

رؤية مقارنة:

تنوعت طرائق تاريخ الأدب مع ذلك تنوعاً كبيراً.. في وسائل البحث، أو في أهدافه في الأدب العربي، أو في الآداب العالمية.. وهذه محاولة للكشف عن عناصر التنوع، والاختلاف في تأريخ الأدب الفرنسي والإنجليزي، والبرازيلي، والعربي، لنصل منها إلى منهج شوقي ضيف وإضافاته في هذا المجال.. وسوف تعتمد الدراسة إلى:

- A short History of English literature, by Emile Le Gouis.

في مجال الأدب الانجليزي.

- A short History of French literature, by Geoffrey Brereton.

- Tableaux de la litterature Française au XIXe Sicle et au XXe Siècle pour Fortunat Strowski.

في مجال الأدب الفرنسي:

- A literatura Brasileira atraves dos textos- De Masoud Moisés.

في الأدب البرازيلي.

لمحاولة تبين مناهج دراسة تأريخ الأدب في بعض الآداب العالمية المختلفة.. ومنها تبين أوجه الخلاف أو الاتفاق بين مناهج تأريخ الأدب العربي، ومنهج تأريخ الأدب الغربي ومنهج الدكتور شوقي ضيف.

(١) المصدر السابق: ص ٤٣.

فموجز تاريخ الأدب الإنجليزي «لاميل لجوا» يؤرخ بدءًا مما قبل عصر «تشوسر» Chaucer «بفصلين صغيرين.. يتحدث في أولها عن الأدب الأنجلوسكسوني، وفي ثانيهما من الغزو النورماندي حتى «تشوسر». ثم يبدأ القرن الرابع عشر» ثم «تشوسر ١٣٤٠؟ - ١٤٠٠» ثم القرن الخامس عشر، ومنه إلى عصر النهضة الذي يتوقف معه بنهاية القرن السابع عشر، وينتقل بعدها إلى القرن الثامن عشر والرومانسية والعصر الفكتوري.. وما بعد ذلك حتى الآن.

ويلاحظ أن التقسيم ينبع من طبيعة حركة الأدب ذاته.. أي باعتباره متغيرًا متأثرًا بحركة المجتمع والتاريخ.. فمنذ بدئه في القرن الثالث عشر وحتى الآن لانكاد نعثر على حقبة أو عصر منه يقترن في التسمية بالعصر التاريخي السياسي المصاحب، اللهم إلا العصر الفكتوري -Victorian Era الذي يقع في النصف قرن الممتد خلال القرن التاسع عشر بين سنتي ١٨٣٠ و ١٨٨٠، وفيها عدا هذا فإن الانتقال التاريخي يخضع لعوامل المتغير الفني، والمضموني، والجمالي، في الأدب في المقام الأول.

وهو ما نلاحظه بصورة أكثر تركيزًا في «موجز تاريخ الأدب الفرنسي» لجيوفري بريريتون^(١)، الذي قسم عصور الأدب الفرنسي إلى أقسام ثلاثة: العصور الوسطى، ثم من النهضة حتى الثورة.. ثم من الرومانسية حتى اليوم، وهذا التقسيم يبدو أكثر حيوية وفاعلية من تقسيم «ليجوا» لعصور الأدب الإنجليزي، حيث تتقارب ملامح وتتباعده.. فتتقارب الملامح المكونة لمرحلة النشأة والاستمرار والتكوين في العصور الوسطى.. بينما تختلف ملامح عصر النهضة وما بعده بقليل عن المرحلة الأولى والتالية، وهو يعطى صورًا واضحة الدلالة على كل قسم من أقسامه الثلاثة: يحي عرض لفنون الأدب في غنائية الشعر Medieval في القسم الأول.. ثم يتكون القسم الثاني من عناصر جزئية موضحة للملامح جزئيته المتكاملة.. ويختار لذلك عناوين دلالية منها في مجال النثر العام: الخطوط الخارجية. وناقذة على المجتمع وضمير الجماعة.. وهي العناوين المكونة لعناصر اتجاهات النثر Prose بصفة عامة في خلا هذه الفترة.. ثم يخصص فصلًا للرواية والقصة القصيرة وينتقل إلى فنون المسرح في فصل آخر، التراجيديا والكوميديا، ثم إلى الشعر من ماروت Marot حتى شينيه Chéneir، أما القسم الثالث فيتنقسم إلى فصلين للرواية في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين، وفصل ثالث عن النثر الآخر منذ سنة ١٨٠٠، ثم فصلين عن الشعر من لامارتين حتى مالارمي.. ثم الشعر في القرن العشرين، ومنه ينتقل إلى الفصل الأخير من القسم الثالث، وفيه يتناول المسرح منذ سنة ١٨٠٠، ثم يتبع

A short History of French literature; Geoffrey Brereton apelican original. Penguin Books 1965. (١)

أقسامه بفصل حول التواريخ الهامة في الأدب الفرنسي، مقابلة بالتواريخ الهامة في التاريخ السياسي الفرنسي، وذلك بدءاً من القرن الحادى عشر الذى نجد أهم حدث تاريخى فيه (ربما من منظورنا العربى) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) نجد فى مقابلها لأحداث التاريخ الأدبى الفرنسى أغاني التروبادور troubadour (١٠٧١ - ١١٢٦).

ونصل إلى نموذج آخر فى مجال تأريخ الآداب العالمية وهو «تاريخ الأدب الفرنسى فى القرنين ١٩ و ٢٠»، الذى نجده ينقسم إلى خمسة أقسام: فى موروث القرن الثامن عشر، وثان فى العصر الرومانتيكى، وثالث فى الحركة الإنسانية، والوضعية ورابع فى انتصار الأفكار الوضعية، وخامس فى العصر الحديث، وهذه الأقسام لا تعالج موضوعات الأدب، ولكنها تنتقل من قسم تاريخى لآخر، وتعنون كل عصر منه بما يلائم ملاحظه الأساسية المسيطرة - ويتضح بطبيعة الحال، أن هذا المرجع يتناول فصلاً واحداً من تاريخ «بريريتون» وهو الفصل الثالث الذى كان عنوانه «من الرومانسية حتى الآن».

وإذا ما وقفنا عند الفصل الأول، والذى يحمل عنوان «موروث القرن الثامن عشر L'Heritage Du XVIII siècle نجده يتناول» روح الفلسفة فى الأدب، وحالة الأدب فى عصر الثورة.. وأدب الثورة. والصحافة، والتراجيديا، والكوميديا، ثم العودة إلى فلسفة القرن الثامن عشر، والأفكار Les idéologues وجان جاك روسو ومدرسته، والنفوذ الأجنبى L'influence étrangère، ومهدا بهذا كله للأدب فى الإمبراطورية الأولى فى القرن التاسع عشر، والذى هو محور الكتاب.

ويلاحظ أن مجال دراسة الأدب الانجليزى أو الفرنسى لا تتجاوز ستة قرون، يمثل القرن الرابع عشر وما قبله بقليل مرحلة تكون اللغة، ثم يتحول التقسيم إلى فترات تتضاءل حتى تصل فى بعض الآداب إلى مالا يزيد على نصف قرن^(١). وينسحب هذا على بقية آداب أوروبا الحديثة!! إذا صحت العبارة مثل الإسبانية، والبرتغالية، والإيطالية، والألمانية، وآداب أوروبا الشرقية، وهذا جميعاً فيما عدا الأديبين اليونانى واللاتينى، مع ملاحظة أن الأدب اليونانى الحديث ليس امتداداً فى اللغة على الأقل للأدب اليونانى القديم، كما أن الأدب اللاتينى أصبح جزءاً من التراث لا يقوم على دراسته إلا المختصون فى الجامعات فحسب، لتصبح بذلك اللاتينية واليونانية القديمة لغة تراث فحسب غير مستخدمة.

(١) انظر تقسيم الأدب الإنجليزى على سبيل المثال.. فى العصر الفكتورى الذى لا يمتد أكثر من نصف قرن. بل والعصور الحديثة فى الآداب الأخرى «كالواقعية Realism» كمنهج لا يمتد أكثر من هذا سواء فى الأدب الإنجليزى أو الفرنسى.

وهذا أيضا ينسحب على أدب أمريكا الشمالية، والوسطى، والجنوبية وهى منطقة العالم الجديد التى خضعت لآداب أوروبا، ولغتها تؤثر فيها، وكان أظهر هذه اللغات والآداب: الإنجليزية وقد سادت فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وبعض مستعمرات صغيرة أخرى فى البحر الكاريبى، وفى أقصى الجنوب، أما ساحل الأرجنتين جزر فولكلاند Falkland والفرنسية فى كندا وبعض مستعمرات جزر أمريكا الوسطى فى بحر الكاريبى كذلك، ثم الإسبانية التى سادت منطقة وسط أمريكا فى المكسيك وجوايتمالا وما حولها من مناطق، ثم كل أمريكا الجنوبية شمالاً ووسطها وجنوبها، ثم البرتغالية التى سادت البرازيل فحسب من هذه المنطقة (مع ملاحظة أن البرازيل تزيد مساحتها على مساحة هذه المناطق الأسبانية مجتمعة).

ومن هنا يصبح الأدب البرازيلى متصلاً على نحو أو آخر بالآداب البرتغالية، ولكنه اتصال بالجذور أتاح له فرصة التنوع والاختلاف، إذ أن الاستعمار البرتغالى للبرازيل يبدأ مع سنة ١٥٠٠ م، وهو أيضا بدء الحياة الأدبية فى هذه المنطقة كما يشير «ماسود موسى» أو «مسعود موسى»، (وواضح أنه عربى مهاجر من أصل عربى)^(١).

ويقسم «مسعود موسى» كتابه إلى: مرحلة التكون والأصول Epoca de Formação e Origens; ثم عصر الباروك Barroco والأركاديسمو Arcadismo ثم عصر الرومانسية Romantismo ثم الواقعية Realismo والرمزية Simbolismo والعصر الحديث Modernismo.

ويرى المؤلف أن المرحلة الأولى تنحصر ما بين عامى ١٥٠٠ و ١٦٠١، وبين عمليتين على وجه التحديد... أولهما «الرسالة A Carta» التى كتبها «بيرو فازدى كامينا» سنة ١٥٠٠، وثانيهما مجموعة أشعار «بنتو تيشيرا Bento Teixeira».

وأما المرحلة الثانية فيراها بدءاً من ١٦٠١ حتى سنة ١٧٦٨ مع ظهور مجموعة الأعمال الشعرية Obras Poeticas للشاعر «كلاوديو مانويل داكوستا»... حيث تبدأ المرحلة الثالثة لتنتهى مع سنة ١٨٣٦ تاريخ ظهور مجموعة «جونز الفزدى ماجاليايز Os suspiros Poéticos e Saudoes» لتبدأ مرحلة الرومانسية، وتنتهى بظهور أعمال «ألويزيو أزيفيدو» Aluisio Azevedo سنة ١٨٨١، معلنة تيار الواقعية والطبيعية حتى سنة ١٩٠٢.

وأما المرحلة السادسة، وهى مرحلة الرمزية فيراها مزدهرة فى مرحلة الواقعية، ويبدأ من سنة ١٨٩٣ وحتى سنة ١٩٠٢، ويمتد حتى سنة ١٩٢٢.

(١) A literatura Brasileira Através dos textos, Massaud Moisés Editora Cultrix São Paulo, Brazil 2

a edição 1973.

ويصل إلى المرحلة الأخيرة في تقسيمه وهي مرحلة «المعاصرة»، أو «الحدائة» Modernism ويراهها تبدأ من العقد الثاني.. في محاولة لخوض تجربة جديدة في آفاق الأدب شعره ونثره وقوله الفني المختلف.. وهو يبدأ من أعمال «ماريودي أندراد» (Mario de Andrade) ١٨٩٣ - ١٩٤٥).

ويلاحظ في «تاريخ الأدب البرازيلي» «لمسعود موسى» أنه يعتمد على «العصور الفنية» فحسب دون تعلق بالمراحل التاريخية منذ احتلال البرازيل سنة ١٥٠٠، ويرى الاعتماد على التقسيم المنبثق عن حركة الأدب، ويجد في الانتقال من مرحلة لأخرى عملاً، يأذن بهذه الانتقال.. يتمتع بخصائص جديدة وسمات جديدة تميز عصرًا أدبيًا مختلفًا.. وربما نجد صورة من هذه التقسمة في تاريخ الآداب الأوروبية الأخرى لمختلفة وفي تاريخ الأدب الإنجليزي والفرنسي كما رأينا..

ويتميز تاريخ «مسعود موسى» بأنه يعتمد على «النصوص الأدبية»، ولذلك فإنه يسمى كتابه «الأدب البرازيلي من خلال النصوص» «A literatura Brasileira Atrvés dos Textos»، ولكنه لا يتوقف عند كل نصوص المرحلة.. ولكن يقتطف النماذج ذات الأثر التحويلي في تاريخ الأدب، والتي تتميز بالملامح المغايرة، أو التي تبدو منها سمات المرحلة الأدبية التي يؤرخ لها.

وأما في «تاريخ الأدب العربي» فإن التقسيم ينطلق من العصور التاريخية.. فتبدو عصور الأدب العربي على هذا النحو:

العصر الجاهلي: ويقصد به عادة العصر الممتد قبل الهجرة سنة ٦٢٢م، وهم يقسمونه إلى جاهلية أولى وجاهلية ثانية، تصلان في مجموعهما إلى ثلاثمائة عام.. ليس حولها خبر مؤكد فيما قبل القرن السابق على الإسلام.

العصر الإسلامي: ويقصد به عادة عصر صدر الإسلام أى حوالى نصف قرن منذ بدء الدعوة الإسلامية، وحتى ظهور الدولة الأموية مرورًا بعصر الخلفاء الراشدين..

العصر الأموي: ويقصد به عصر حكم أسرة بني أمية في حوالى قرن من الزمان من سنة ٤١هـ حتى سنة ١٣٢هـ.

العصر العباسي الأول: وهو العصر البادى من بداية حكم بني العباس سنة ١٣٢هـ حتى سنة ٢٣٢هـ.

العصر العباسي الثاني: ويبدأ من سنة ٢٣٢هـ وينتهى لسنة ٦٥٦هـ مع غارات التتار.

العصر العثماني: ويشغل حيز الدولة العثمانية برمتها على الشام ومصر وأرجاء العالم العربي.
الأدب الأندلسي: ويشمل فترة حكم العرب للأندلس، وينقسم داخلياً إلى عصور.

ثم الأدب في مصر في عصر الفاطميين، أو الأيوبيين، أو الطولونيين، أو المماليك.. وعلى غرارها الأدب في أرجاء العالم العربي المختلفة في المغرب العربي، أو المشرق العربي.. حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م كان بدء العصر الحديث.

ولا شك في أن هذا التقسيم تقليدي، حيث كان الأدب يدرس جزءاً من التاريخ، بحيث يدخل في إطار ما يعرف بالحياة العقلية والفنون والعلوم والآداب، ومن هنا استمرت هذه «المسلمة» النقدية التاريخية مع ما استمر من مسلمات نجدنا في حاجة إلى إعادة النظر فيها والأخذ بها أو رفضها.. إذ أن المؤرخ للأدب الحديث في مصر، لا يجد مبرراً على الإطلاق للبدء من الحملة الفرنسية، وهو يرى مدرسة البعث والإحياء تزدهر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وليس في بدايته.

إشكالية المصطلح النقدي:

قد يبدو من مقارنة مناهج تأريخ الأدب العربي والغربي، ارتباط تاريخ الأدب الغربي بمفاهيم اصطلاحية نقدية Critical Idioms.. تتبع عادة من طبيعة المرحلة التي يوصف بها الأدب، أو كنتيجة لمزاج عام يسيطر على مجال العطاء الفني أو الأدبي، ويعني آخر فإن ابتعاد تاريخ الأدب الغربي - بعامته - عن تاريخه السياسي: أتاح الفرصة للنظر في مناطق المتغير الفني الزمانية.. وأصبح التأريخ ببدايات ظهور المذاهب الأدبية أمراً وارداً، بل ضرورياً.. ومن هنا نجد التاريخ الأدبي يجمع على البدء بالعصر الكلاسيكي.. وهي تسمية لا تصلح للتأريخ السياسي للحقبة الزمنية المواكبة له.. ثم يعكف على عصر النهضة، أو «الرينسانس» وهو مصطلح يصلح للتاريخ، كما يصلح للأدب، وليس دخلياً من أحدهما على الآخر، بل يكاد يكون مطابقاً للمواصفات الفنية المميزة لإنتاج عصره الأدبي من حيث طبائع التغير والتجديد فيه، وينتقل منه إلى عصر الرومانسية والواقعية ثم الحداثة (على الرغم من ارتباطها غير الوثيق أحياناً بأحدث ما في العصور زمانياً).

والإشكالية في المصطلح النقدي - في تصوري - غير واردة - في منظور مؤرخي الأدب القداماء على الأقل.. فلم يكن الاختلاف مذهبياً في الأدب بقدر ما كان في علوم اللغة والنحو والبلاغة والمعاني والبيان.. وربما بدأ الفكر العربي واضحاً في عصوره المختلفة في هذا المجال على

وجه التحديد.. بل لم يكن يبدو خلاف حول «المصطلح النقدي» في أى مجال آخر من مجالات الفكر العربي..

وقد تبدو الإشكالية أكثر وضوحاً عند بعض من أخذ بعلوم النقد الحديثة في الآداب الغربية، واستعار عدداً من المفاهيم وردت مع ما استعير من فنون مستحدثة.. ولم يكن بديهياً لمن تمثل الشعر الغربي وأخذ يقلده أن ينفر من مصطلحه، وكذا في المسرح أو الرواية أو القصة.. وليس أدل على ذلك من مصطلح «الشعر الحر» في مقابل Vers libre بينما الشعر الجديد في مدرسة صلاح عبدالصبور وغيره «غير حر»، بل هو متقيد بقيود فن الشعر والعروض، والموسيقى، والقافية الداخلية، واللغة والبلاغة ونحوها.. إذا ما كان هناك من خلاف فلا يبدو في غير «عدد التفعيلات» ليس غير.

أما «المصطلح النقدي» في التراث، فلم يبد على قدر من الأهمية بحكم ارتباط مؤرخ الأدب بعصور التاريخ السياسي كذلك، واكتفائه بالعنوان المستمد من العصر التاريخي ليصبح أيضاً عنواناً ينسحب على العصر الأدبي حتى العصر الحديث.

ومن الطبيعي نتيجة لهذا أن تنحصر المهمة التاريخية في حركة التسجيل دون النقد، أو تجمع بينهما مضيقة «الموضوع» فحسب بحيث يتصنف رثاء، أو هجاء أو مدحاً أو نحو ذلك دون توجه «مضمونى»، أو كشف «شكلى» من أى نوع.. يتيح الفرصة للوقوف عند التحولات الفنية الجذرية في تاريخ الأدب العربي.

الرؤية المنهجية:

تنقسم دراسات أستاذنا الكبير الدكتور شوقى ضيف إلى قسمين رئيسيين في تأريخ الأدب العربي:

- دراسات تاريخية يسود فيها الجانب التاريخي العلمى، على الجانب النقدي التحليلى المتدوق.

- دراسات تاريخية يسود فيها الجانب النقدي العلمى، على الجانب التاريخي المتتبع.

ومثالنا على القسم الأول مجموعة تاريخ الأدب العربي، الذى بدأ بالعصر الجاهلى، ثم الإسلامى، ثم العباسى الأول، فالعباسى الثانى، فعصر الدول والإمارات جـ ١ (الجزيرة العربية - العراق - إيران)، وجـ ٢ (مصر والشام).

ومثالنا على القسم الثانى مجموعة دراساته فى التطور والتجديد فى الشعر الأموى. والفن

ومذاهبه في الشعر العربي. والفن ومذاهبه في النثر العربي، والشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، والأدب العربي المعاصر في مصر، ودراسات في الشعر العربي المعاصر، ثم شوقي شاعر العصر الحديث، والبارودي رائد الشعر الحديث^(١).

وموسوعية الأداء سمة من أهم السمات التي يتميز بها الدكتور شوقي ضيف، فضلاً عن الحس النقدي فائق الدقة.. والذي يتمثل في منهجه في الاستقصاء، وترتيب المادة التاريخية، والكشف عن هوية عدد من الملامح في مراحل تأريخ الأدب العربي ونقدخ

كما أن السمة العلمية تبدو واضحة في القسم التاريخي من دراساته (تاريخ الأدب العربي)، والتي يدل صدورهما على معاشة عملية زمنية متعاقبة، بدأت بالعصر الجاهلي في تعاقب، وصل إلى عصر الدول والإمارات في مصر والشام مروراً بالعصر الإسلامي، ثم العباسي الأول، ثم العباسي الثاني ثم عصر الدول والإمارات في العراق وإيران والجزيرة العربية. بينما نجد القسم التاريخي النقدي يخضع لمتغيرات التدقيق لحاجة الدراسة.. ولهذا نجده لا يصدر في تعاقب تاريخي إذ لا حاجة فيه لذلك، وإنما يصدر طواعية في إطار تكامل التصور النهجي النقدي المراد التعبير عنه.. فتدقيق الأدب العربي المعاصر، ودراسات الشعر الحديث تأتي في الخمسينات والبارودي في الستينات، يسبقهما العصر الأموي ويليها العصر الجاهلي.. أو نحو ذلك.. وهو لم يجد حاجة ماسة لمعاشة التراث الأدبي في عصوره المختلفة متعاقبة، إلا عندما وجد الضرورة الملحة لذلك.. فالتعاقب قد يفيد في مجال رصد الظواهر في الدراسات النقدية، ولكنه حتمي في مجال دراسات التاريخ الأدبي.

أولاً: تاريخ الأدب العربي:

قد تبدو محاولة اكتشاف المنهج عسيرة.. وهو المنهج العلمي التاريخي الذي صدر فيه د. شوقي ضيف عن دراسة تاريخ الأدب العربي في مجلداته المتعددة، وعلى الرغم من محاولات التنقيب والتفتيش في تضاعيف دراساته هذه، فصعوبة الجزم باكتشاف المنهج قائمة.. وإن كانت محاولات «التصور» تبدو بديلاً عن نتائجنا.

أول ما يبدو من تصور حول «المنهج» أننا أمام باحث يضع تمثلاً دقيقاً للعصر الأدبي الذي يؤرخ له.. مرتباً شاملاً، بحيث تتكامل فيه الجزئيات، وتكون عناصر حية متكاملة لتوضح صورة العصر الأدبية بجميع عوامل تأثيراتها وتفاعلاتها. ولذلك فإن خوض عالم «الحياة الأدبية»

(١) وبذلك يمثل د. شوقي ضيف صورة دارس الأدب العربي الذي استطاع أن يغطي مساحته الزمنية والمكانية المتسعة.. وطبعات هذه الدراسات جميعاً طبع دار المعارف لأكثر من مرة حتى أن بعض هذه الدراسات طبع للمرة العاشرة بها.

يتطلب بدهاءه خوض عالم الحياة السياسية، والاجتماعية والعقلية. ولا تتكشف ضرورة خوض هذه العوالم إلا بعد اكتشاف عناصر تأثيرها في الحياة الفكرية بعامة والأدبية بخاصة.. وربما يؤكد هذا عصر الارتباط العضوي بين الأدب وبينته، باعتبار الأديب واسطة العلاقة بين الطرفين^(١).

ولقد تنوعت طرائق الكشف عن عناصر الحياة بأرجائها من عصر لعصر.. فبينما نجدها في العصر العباسي (الأول والثاني) تلتزم العناصر المباشرة (سياسية - اجتماعية - عقلية) نجدها في العصر الجاهلي - بحكم طبيعة البداية في الأدب والباحث - تخوض تجربة التعريف بالأدب وجزيرة العرب والجنس السامي، ثم الحياة الجاهلية بعناصرها السياسية والاجتماعية والعقائدية، فهي باعتبارها مرحلة بداية أدب أمة تخوض تجربة التعريف بالعرب، وأصلهم، ولغتهم، وتكونها، وهو أيضاً ما يحتاجه الباحث في هذه المرحلة لينطلق منه لتتبع تاريخ وأدب هذه الأمة في عصورها التالية.

ولأن معطيات الإسلام شكلت محوراً مغيراً في ظواهر الحياة بأرجائها المختلفة، سياسية واجتماعية وعقلية.. بل محوراً أدبياً مغيراً فيما قدمته من ظواهر فنية وأسلوبية جديدة و«حديث»، فلقد تغيرت محاور التناول التاريخي في العرض للأدب الإسلامي^(٢) سواء في مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) التي تنتهي ببدايات العقد الثالث للهجرة (سنة ٤١ هـ على وجه التحديد)، أو مرحلته الثانية (عصر الأمويين) التي تنتهي ببدايات العقد الثالث بعد المائة (سنة ١٣٢ هـ على وجه التحديد وهو بداية عصر الخلافة العباسية الأولى)، فيتناول في الفصل الأول من الكتاب الأول «الإسلام» كقيم روحية، وعقلية واجتماعية وإنسانية، ومنه إل نصوصه: القرآن الكريم، والحديث النبوي، والأثر المتروك في اللغة والأدب.. ثم تبدو الآثار المباشرة في محتوى الشعر (شعر الفتوح، والمدائح النبوية، والشعر المخضرم المتأثر بالإسلام، وفي أنواع النثر وخاصة الخطابة والكتابة.. ولا يلبث أن يتتبع كذلك الحياة الإسلامية بصفة عامة امتزاجها بالشعوب المجاورة، وأثرها فيها، وتأثرها بها، ومظاهر هذا كله في فن العربية الأول - الشعر - وفن النثر على السواء.

ويبدو منهج التتبع الدقيق لظواهر الحياة بأنواعها واضحاً في العصر العباسي الأول والشان^(٣)، ربما بحكم استقرار المفاهيم السابقة والتي تعرض لها في العصرين الجاهلي

(١) انظر: فصول في الأدب: التراث - النقد - النظرية. الكتاب الثالث د. حلمي بدير. طبعة دار المعارف ١٩٨٣.

(٢) العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف. دار المعارف. الطبعة الثامنة ١٩٧٨.

(٣) العصر العباسي الأول: د. شوقي ضيف. دار المعارف الطبعة السابقة ١٩٧٨ والعصر العباسي الثاني: دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

والإسلامي.. وربما بحكم تزامم المؤثرات المختلفة وتراكبها وتشابكها في صنع صورة الحياة الأدبية لهذا العصر، ومن هنا كان وضوح الرؤية الشمولية المعبرة عن الحركة الحية المكونة لعناصر الإبداع والتفكير.. في الحياة السياسية: العباسيون والعلويون، والخوارج، وثوراتهم، والنظم السياسية، والإدارية والمدن.. في الحياة الاجتماعية: مظاهر الترف والثراء والرخاء، وما استتبع من رقيق، وجوار، وغناء، ومجون، ونحوها. وفي الحياة العقلية: واشتباكها وأثر الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي.. وتراكمية الأثر ووضوحه في الحركة العلمية، وعلوم اللغة والتاريخ والدين وعلم الكلام والفلسفة.. وانطلاق الثقافة العربية إلى تجارب عقلية مجاورة.. والأثر المترتب على حركة الشعر والشعراء، والنثر والناثرين، ووضوح رؤى التشيع والانقسام، والمذهبية والخصوصية الفردية والجماعية في شعر الزهد والغزل والجون والزندقة.. وأيضاً الأثر المترتب في حركة النثر وتطور فنونه في الخطب والوعظ والقصص والمناظرات والرسائل ونحوها، وأعلام كل فن منها.. وملامح الشكلية الفنية منها..

ومع اختلاف في المضمون في عناصر الحياة الثلاثة نجد العصر العباسي الثاني، يقف أمام الظواهر السابقة أيضاً في تكانف للرؤية، يحول شمول جوانب التأثير المختلفة، والمشتبكة في صنع الحركة الأدبية وظواهرها المتنوعة، مع اختلاف يسير ناجم عن الاختلاف الطبيعي في تعاقب العصور التاريخية.

وهنا تظهر الرؤية الشمولية في تمثل حركة الأدب العربي على مر عصوره.. وذلك في المقدمة الإيضاحية التي يضعها أستاذنا دكتور شوقي ضيف كتابه عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية - العراق - إيران)^(١). والتي يقدم من خلالها تمثلاً جديداً لعصور الأدب العربي تقف بالعصر العباسي الثاني سنة ٣٣٤هـ، لبدأ عصر الدول والإمارات الذي يشمل الامتداد الزمني من ٣٣٤هـ حتى بدء العصر الحديث. في أرجاء العالم العربي.. باعتبار تقلص زعامة العباسيين للدول والإمارات في حدود بغداد فحسب.. وهنا تصبح التقسمة الجديدة وقد اعتدت بالقرون الثمانية بين القرن الرابع والقرن الثاني عشر عصرًا وسيطاً يشبه سمة العصور الوسطى الأوروبية.. مع ما تميزت من سمات، مع اختلاف الظلال والتفاصيل. ونجد عصور الأدب في هذا التقسيم الجديد تنقسم إلى:

العصر الجاهلي - والعصر الإسلامي - والعصر العباسي - والعصر الوسيط - والعصر الحديث.

وهي من هذا المنطلق ليست تقسمة تاريخية بقدر ما تتمتع أقصى سمات التقسيمات الفنية..

(١) طبعة دار المعارف. يونية ١٩٨٠ طبعة أولى.

بحيث يبدو كل عصر منها ممثلاً للملامح، منتقلاً عبر التاريخ بخصوصيات تميزه في حياته العقلية والإبداعية عن غيره من العصور الأدبية والفكرية والعقلية.

وكان المؤرخون يمتدون بالعصر العباسي الثاني حتى سنة ٦٥٦ هـ «حين أغار قطعان التتار حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثماني»^(١).

ولتسمية هذه الفترة الممتدة بين سنة ٣٣٤ هـ والعصر الحديث بعصر الدول والإمارات عدة أسباب أولها الارتباط الوثيق بين أرجاء الوطن العربي على الرغم من ظواهر الضعف والتفكك وغيرها - ويجد الدكتور شوقي في علاقة الفكر أوثق العرى. ويرى أن الدليل على التقارب الوجداني بين أرجاء الوطن العربي في هذه الفترة أن «العلماء - كانوا - حين يؤلفون كتاباً تراجم عاماً يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير، وكانوا إذا ألفوا كتاباً في تراجم علم كالقراءات أو التفسير، أو النحو، أو حتى في فرع كفقهاء الشافعية أو المالكية أو الأحناف جمعوا فيه علماء في جميع البلدان العربية. بالمثل حين يؤلفون أحياناً في تراجم الشعراء»^(٢).

وهو يقسم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام مكانية صدر منها القسمان الأولان: أحدهما يخص الجزيرة العربية، والعراق وإيران، والشأنى يخص مصر والشام.. ويشيقر إلى الثالث الذى سيخصص - بإذن الله - للمغرب والأندلس - وهذا تغطى دراسات تاريخ الأدب العربى المساحة المكانية الممتدة من المحيط إلى الخليج.

وتبدو واسطة التعامل مع زمانية ومكانية العصر.. فى نماذج التعامل مع عطائها الأدبى الذى هو محور الدراسات فى المقام الأول، ومنهجية التعريف بالظاهرة الأدبية أو الشخصية المبدعة.

التعريف بالظواهر الأدبية:

وهى الحركات الإبداعية المواكبة لمزاج العصر، تبدو ثمرة له، أو رد فعل فى مواجهته.. تبدأ من ظاهرة «الصلعكة» و «الفروسية» فى العصر الجاهلى، وتدخل فى طرف منها كثمرة له (الفروسية)، وفى جانب آخر كرد فعل مضاد له (الصلعكة)، تناوها الدكتور شوقى ضيف فى الفصل الحادى عشر من العصر الجاهلى، تحت عنوان، جامع «طوائف من الشعراء».. واستخدام «طوائف» معبر عن هذه المذهبية، كما سنجد فى العصر الإسلامى، والعباسى الأول والثانى

(١) المصدر السابق: ص ٥ وما بعدها من المقدمة.

(٢) المصدر السابق: ص ٦

وعصر الدول والإمارات، وينحصر في العصر الإسلامي في ظاهرة «الغزل الصريح» و«الغزل العذرى»، وظاهرة «الزهد».. وتبدو في العصر العباسي في امتداد بعض الظواهر كالإباحية، والزهد، ونشوء بعض الظواهر الشعرية الأخرى «كلاعزالية» و«الشعبية».

وتبدو الظواهر الأدبية - كما سبقت الإشارة - ممتدة في بعضها عبر العصور والأجيال وناشئة في عصر دون آخر مواكبة لحركة المد المتغيرة وحركته الفكرية ومتغيرات السياسة والتاريخ.. وتبدو الظاهرة مفسرة تكشف عن طبيعة حركتها.. في ظاهرة المجون والزندقة في العصر العباسي الأول (وكانت في العصر الإسلامي تحمل عنوان اللهو والمجون) نجد إجمال مسبب الظاهرة «فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد، وساعد على اضطراب النفوس وتسلسل الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية، وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيمًا، وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التي كانت أسواقًا للعبث، وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلًا يصور - عند أبي نواس وأحزابه - انحطاطًا خلقياً شنيعاً، وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء، مما أدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطنهن على الحياة المنزلية، إذ أخذت مكان المرأة العربية الحرة، وكن مختلفات الأجناس، وكثيرات منهن كن قد نشئن على اللهو والمجون والابتذال، والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة»^(١).

والإجمال الباحث وراء مسبب الظاهرة يتبعه رصد لمظاهرها في الكوفة - السابقة إليها - والبصرة وبغداد، ومظاهرها في شعر والبة ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد.. وحماد عجرد - الذى يفرد له عنواناً - ثم ينتقل إلى صالح بن عبد القدوس كظاهرة تكمل صورة المجون والزندقة في هذا العصر مع تتبع دقيق لظواهرها عنده.. وارتداده لدين آبائه.

ولا شك أن تتبع الظواهر الأدبية ينبع من تمثل دقيق للحركة العقلية المتكاملة تتشابه فيها عوامل المؤثرات جميعاً.. وهى المؤثرات الداخلة في تكوين المعطى الفكرى الرئيسى، وهى كذلك محور يحتاجه الباحث والناقد على السواء.. ويقوم المؤرخ في هذه الحالة بدور الناقد أولاً.. يسبق فيه دور الراصد العلمى للظاهرة، وتبدو دقة التعامل النقدى مع الظواهر الأدبية في مجال المقارنة بين آرائه وآراء سابقه، أو معاصره فيها وقد استطاع أن يعلم تلاميذه منهجه التاريخى النقدى المعتمد على استقراء واستقصاء للفكرة من جميع جوانبها، ووقوف على كل ما قيل حولها. ثم محاولة الوصول إلى الرأى الفصل فيها.. أو الأقرب إلى المنطق والمعقول بدلالة

(١) العصر العباسي الأول: دار المعارف، الطبعة السابعة. ص ٣٨٢.

التاريخ والأحداث. وقد استطاع بهذا التحليل العلمي إثبات «نقد النثر» لصاحبه ابن وهب بعد أن قر طويلاً في الأذهان نسبه لقدماء.

ولقد كانت فكرة «الأصالة» و«المعاصرة» من الأفكار الرئيسية التي شغلت أستاذنا في تتبعه لتاريخ الأدب العربي.. منطلقاً من «العلم» بدقائق الأخبار وتفصيلاتها.. نجده يضع تصويره في مقدمة دراساته في «العصر الإسلامي».. ويوضحها في مقدمة «العصر العباسي الأول»:

«وقد بسطت القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً، إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ويمثلون ملكتها تمثلاً دقيقاً، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى، يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة، وحيناً يجمع بين الرقة والعدوية، وكان تأثرهم عميقاً بالثقافات المترجمة، وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تحصى، ودفعهم إلى التطور بموضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيناتهم المتحضرة وحياتهم اليومية، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال، هي صفحة الشعر التعليمي، الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانية منظومات طريفة، واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة وأنماطاً من القوافي كانت مجهولة»^(١).

وفي أكثر من موضع تبدو ظاهرة «الموسوعية» في العلم بعلوم العربية وتاريخها جلية واضحة، يحدثك عن «مزاج هذا العصر The spirit of the age وهو ملم بأكثر أرجائه، محيط بكثير من دقائقه.. وتأليفه في علوم العربية المختلفة، ويحدثك عن الظاهرة الأدبية حديث الخير بفنونها المضطلع بعبء التفكير في دقائقها، ويستشهد بشعر شعرائها فيبدو ملماً بأدق خصائصه وأدق قصائده ومقطوعاته الأصلية أو الدخيلة.

وبالإضافة إلى المقتطف السابق من مقدمة «العصر الأول» تأمل معي هذا المقتطف من مقدمة «العصر العباسي الثاني».

«وصورت نشاط الشعر حينئذ، وكيف تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً، وكيف أودعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة، مما جعلهم يجدون في الموضوعات القديمة والأخرى المستحدثة في العصر العباسي الأول صوراً مختلفة من التجديد، تحفل بما لا يكاد يحصى أو يستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المبتدعة وظلوا ينمون الشعر

(١) العصر العباسي الأول: ص.. المقدمة. الطبعة السابعة.

التعليمي، وينظّمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة»^(١).

وهذا التمثل الدقيق لما هو «أصيل» وما هو «معاصر» في التراث أمر يحتاج إلى تمثّل واع بمدلول الأصالة، ومدلول المعاصرة في إرتباطها بالمتغير الزمني.. وأثر «الزمانية» في تحويل «المعاصرة» إلى أصالة.. وفي «تأصيل» الموروث. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية في ظواهر المعاصرة «المضمونية» و«البنائية».. أي الداخلة في إطار المعنى، أو الداخلة في إطار الشكل، وقد حدث في كلا الإطارين تغير يتيح الفرصة للوقوف على «الثابت» و«المتغير» في كل عصر من عصور الأدب العربي. ومن هنا فإن «المعاصرة» إذا ما اتفقنا على ارتباطها «بالحدث» معنوياً، متغير مرتبط بالزمانية.. أي لا يستقل بعزل عنه. وهي فكرة أدركها أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، وانتقل بها من نطاق التعامل النظري - غير المجدي أحياناً - إلى نطاق التعامل التطبيقي. ورأى من خلالها حركات «الثبوت» و«الانتقال» من عصر لعصر.. في تعاقب متتابع يحتاج إلى بصيرة نافذة وعلم مدقق. وهو ماهياً له أيضاً الوقوف على الظواهر الشعرية الفردية في «الشخصيات الأدبية» بصفة خاصة.

المبدع والنص:

رأينا أن علاقة الدراسة الأدبية بظواهر بيئتها علاقة متكاملة عند أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، تنبع من تقدير كامل لعناصر المكونات الرئيسية في بنية العمل الأدبي.. التي تنبع في الأصل من اتصال المبدع المستوثق من علاقته الحميمة بالبيئة ومتغيراتها المختلفة، ولذلك كان عكوف الكاتب على البيئة، لا ينبع من رغبة توسعية في الدراسة دون مبرر - شأن كثير من الدراسات التي تميل إلى سرد ما سبق سرده في الدراسات والأبحاث ونحوها - ولكن من رغبة «إيضاحية» لعناصر تكوين «الرؤية» المتكاملة من «روح العصر» The spirit of the age واكتشاف «روح العصر» منبئاً بالحتم عن «روح النص» والمبدع.

نموذج أماننا من «العصر الجاهلي» يمثل «التنقيب» العلمي، و«الكشف» عن عناصر التكوين الرئيسية للحياة الجاهلية.. تطلّمن إلى آراء، وتفرّغ إلى أخرى، وتنفر من ثالثة.. فهي في عناصر الاطمئنان مكونة لصورة المجتمع لهذا العصر بشعبه - أو شعوبه - وإماراته وأحوال المجتمع وعقائده، ولغته وشعره وشعرائه.. وهي تكاد تنتشر من العام - عنصر المكان - إلى درجة أقل عمومية وأكثر تخصيصاً - عنصر الزمان - إلى درجات تتتابع في التخصص لتنتقل إلى الحياة فاللغة فالشعر فالشاعر.. في تدرج هرمي تبدو «الجزيرة العربية» قاعدته. وعلى قمته «الشاعر».. كجزء تتكاتف العناصر مجتمعة لتكوين قمته.

(١) العصر العباسي الثاني: المقدمة - الطبعة الثالثة. ص ٥.

وهذا التنوع المفسر لعناصر الدراسة ينسحب بالتالى على عناصر تكوين «النص المبدع» المنتقل من «تكونات الشاعر» إلى «النص» وما نجده متتابعاً من عناصر تكوينه من معطيات: القبيلة - الأسرة - الشاعر - الديوان - الشعر.

نجد هذا في تعامله مع امرئ القيس، والنابعة الذيباني، وزهير بن أبى سلمى، والأعشى^(١). وهذه عناصر أيضاً لا تغفل في تناول الظواهر الأدبية المصاحبة لكل عصر وجيل. (هذا المنهج يعنى ضمناً أن النص لا يفسر بعزل عن مبدعه الذى هو الواسطة بين النص وعصره.. مع ملاحظة أن منهج البنائية Structuralism على الرغم من رفضه صلة النص ببيئته وبالتبعية مبدعه، فإنه يستقى تفسيره من معرفة مسبقة بالنص والمبدع، وهى خلفية تدخل في مجال معارف الناقد.. ماذا يمكنه أن يتناول فيه)؟.

ويبدو هذا بصورة أوضح وأكثر تكاملية في دراساته للبارودى وشوقى، وابن زيدون، وهم الذين أفرد لهم دراسات خاصة بين شعراء العربية في القديم والحديث.

وهو يلخص في البارودى صفة «الرؤية الشمولية» المتكاملة في منهجه التاريخى النقدى، حيث ينطلق في دراسته من العصر والسيرة إلى الشعر والمنزلة الشعرية.. ونحن نتخيل طبيعة التابع في انطلاق الشعر - ككائن حى - من العصر مروراً بالسيرة وهذه محققة لمعادلة: البيئة - الشاعر - النص. وقد يميل البعض إلى تسميته بالمنهج الاجتماعى في تفسير النص، أو عوامل التأثير البيئية، أو نحوها من كليشيهات تتفق أو تختلف.. تظلم «النص والمبدع» أكثر مما تنصفها.. ونحن في مجال «التقييم» evaluation . المعتمد على الاعتداد «بالنص».. وليس «بالمبدع» و «البيئة» إلا من حيث علاقتها به.. ومن هنا تصبح «القيمة النصية» نابعة من عوامل اجتماع هذه الروافد المؤثرة فيه، وفي تكوينه «البنائى»^(١).

ثانياً: الدراسات النقدية:

يقدم الدكتور شوقى ضيف عدداً آخر من الدراسات النقدية التى تبدأ من المنطلق النقدى العلمى لا من المنطلق التاريخى التبعى فحسب.. وهذه الدراسات تميل إلى تعقب الظواهر

(١) انظر: العصر الجاهلى: د. شوقى ضيف. دار المعارف. وانظر بحث د. كمال أبو ديب مجلة فصول. المجلد الرابع العدد الثانى: يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤ ص ٩٢ بعنوان «نحو منهج بنبوى في تحليل الشعر الجاهلى: معلقة امرئ القيس - الرؤية الشبقية».

وقد أشرنا في دراسة سابقة إلى ضرورة الأخذ «بالتفسير الأدبى للأدب» والعودة «بالنص» لمكانته الطبيعية بعد أن ضاع في خضم التفسيرات النفسية والتاريخية والاجتماعية والحضارية والعلمية ونحوها. انظر مقدمة «المؤثرات الأجنبية في الأدب العربى الحديث» د. حلمى بدير دار المعارف ١٩٨٢.

المتميزة، إما لمرحلة من مراحل تطور الأدب «التطور والتجديد في الشعر الأموي»، أو الظاهرة في الشعر والنثر في عصور الأدب العربي المختلفة. «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» و «الفن ومذاهبه في النثر العربي». أو «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور»، أو في عصر منه «الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية».

ولعل الوقوف عند دراسة منها يمكن بها الكشف عن عنصر «الرؤية الشمولية» المتكاملة، والتي لم تعد تتوفر عند كثير من الباحثين من تلامذته أو تلامذتهم. حيث تميل «روح العصر» والجيل الحديث منه إلى ما يعرف «بالتخصص الدقيق».

فدراسة حول «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» دراسة شاقّة، قد لا يستطيع الاضطلاع بها باحث من الباحثين المحدثين.. الذين وجدوا في «التخصص الدقيق» مهراً مريحاً من مشقة موسوعية القراءة.. وعادة ما يقتصر التخصص الدقيق على متابعة كتب أو كتيبات محدودة العدد والقيمة.. أما «الفن ومذاهبه» فعلاقة حميمة بين الدارس وتراثه العربي جميعاً بعصوره الجاهلية، والإسلامية، والأموية، والعباسية، والعصر الوسيط أيضاً في مصر والأندلس، وهو العصر المنتهى ببداية العصر الحديث. شاملاً الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين.

والدراسة تشتمل على ثلاثة كتب: الأول ويتناول عنصر: الصنعة، والتصنيع، ويستخدم لها اسم «مذهب» ومنه ينتقل إلى مذهب التصنع في الكتاب الثاني، ثم ينتقل في الكتاب الثالث إلى المذاهب الفنية في الأندلس ومصر، ومن هنا فإن رؤيته الشمولية للأدب العربي تنبع من زاوية الكشف عن عناصر «مذهبية» في فن الشعر، وهو ينطلق من نظرية نقد عربية خاصة. بدت واضحة في نماذج معروفة في التراث العربي جميعاً. بدءاً من زهير بن أبي سلمى في مذهب الصنعة، وأبي تمام في مذهب التصنيع والمنتبى في مذهب التصنع، وهو يجد في هذه المذاهب «مراحل» مر بها الشعر العربي جميعاً حتى عادت وتمثلتها مدرسة البعث تمثلاً جيداً عند البارودي خاصة.. ولكنه لا يجد في حركات التجديد الحديثة أملاً يرتجى.. لعدد من الأسباب: لزعمها التماس «النموذج الغربي» وهي لم تلمسه أو تتعمقه، ولبعدها عن «النموذج العربي» الذي لم تستطع الاقتراب منه وتمثله.. «وليس من شك في أنه حين ينظم الاتصال بين شعرائنا المعاصرين، وبين المذاهب الفنية القديمة، التي وصفناها من صنعة وتصنيع وتصنع، كما ينظم بينهم وبين الفن الغربي وطرائقه، فيقبلون على تعمق أصول الصناعة الفنية عند العرب، كما يقبلون على تعمق المناهج الفنية والفلسفية عند الغرب ولا يكتفون بذلك. بل يتجهون شطر المشرق فيطلعون على آداب الفرس والترک والهند والأمم الشرقية الأخرى، ولكن لا ليستعبروا وينقلوا، أو يترجموا، بل ليتفاعلوا ويستوعبوا، ويعبروا عن شعورهم وسرائرهم تعبيراً لهم مادته وصورته، وما فيه من

معارض التفكير ومنازع الوجدان. حينئذ تجد قافلة التجديد طريقها الذي أخطأته، ودليلها الذي ضلته»^(١).

وقد تبدو «الرؤية الشمولية» المتكاملة لتاريخ الأدب العربي متمثلة في عدد كبير جداً من الجزئيات، التي لا تستطيع بعض الأبحاث الزاعمة تخصصها الدقيق استيعابها.. بل لعل تمثل جزئيات «الرؤية» يبدو واضحاً منذ البدايات الأولى لدراساته.. «فالنقد في كتاب الأغاني» الذي كان موضوع رسالته للماجستير أوجد عدداً من الصلات الوثيقة بينه وبين شعراء «الأغاني» جميعاً من خلال تتبعه لأحكام «الأصفهاني» وغيره النقدية التي رويت فيه. وهي رؤية تستثمر بعد ذلك بوضوح في جزئيات عدة.. ومعنى آخر فإن علاقات قوية تنشأ من صلات أبحاثه بعضها ببعض الآخر.. تتمثل في عدد من العناصر الأولية ثم لا تلبث وتتبلور في أفكار متكاملة.. «الشعر الشعبي» على سبيل المثال عنصر أولى لا يغفله عند عدد من الشعراء، ثم في عدد من المراحل.. ولا يلبث أن يصبح موضوعاً متكاملًا مستقلاً «الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور». وعنصر الصناعة الفنية ومكوناتها لا في الشعر فحسب ولكن في النثر كذلك.. هي جماع أفكار كثيرة متناثرة اكتملت عناصرها وكونت النظرية الكاملة.. وهذه جميعاً عناصر يمكن من خلالها الكشف عن رؤية أكثر شمولية، وهي رؤية «النظرية الأدبية» عند شوقي ضيف.

إن أهم ما يلفت نظر الباحث في دراسات شوقي ضيف الأدبية والنقدية، أنه أستاذ يعتد كل الاعتداد بعلوم العربية جميعاً.. وهو رائد موسوعي، عالم مدقق بما تعنيه هذه الصفات من معان.

مختتم:

وبعد..

فقد يبدو من الواضح أن التعامل في مجال «الشمولية» في تاريخ الأدب عند شوقي ضيف قد بين عدداً من الملاحظات الأولية تتمثل في:

- أن «تاريخ الأدب العربي» يمثل منهجاً جديداً غير مسبوق في مجال دراسة تاريخية نقدية علمية أدبية مدققة.. مستوعبة تعكف على عصور الأدب العربي في شعور وحس واع تماماً بجزئيات حركة الأدب في عصوره المختلفة.. ومن هنا بدت صورة «الرؤية الشمولية» واضحة في جزئياتها المختلفة.

- أن منهج دراسة تاريخ الأدب العربي قد اختلف عن مناهج دراسة الآداب العالمية المختلفة، التي لا يزيد عمر أي منها على ستة قرون أو يزيد قليلاً، بينما يمتد عمر أدبنا العربي

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف. دار المعارف الطبعة العاشرة سنة ١٩٧٨ ص ٥١٨.

إلى ما يقرب من سبعة عشر قرناً منذ «مهلهل». ومن ثم فإن هذا الامتداد قد فرض تقسيماً
نابعاً من المتغير التاريخي لا من المتغير الفني.. وربما تبدو هذه - بالكيفية تلك - مزية.

- أن «الرؤية الشمولية» قد ساعدت على تبيين مراحل تطور الأدب العربي وتمثل سمات
كل مرحلة بوضوح.. فيما يمكن أن يعد تقسمة جديدة لعصوره الأدبية من جاهلية حتى العصر
الحديث مروراً بالعصر الإسلامي، والعباسي، وعصر الدول، والإمارات.. وهي تقسمة فنية رغم
ظاهرة ارتباطها بالمتغير التاريخي.

د. حلمى بدير

أستاذ الأدب الحديث المساعد

كلية الآداب - جامعة المنصورة